الطُّفُولةُ المُبكِّرة: وَاقــعٌ وتَحــدِّيَـات

إعداد: نادر وهبة

«الطفولة المبكرة: واقع وتحديات» عنوان للقاء حواري نظمه مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، في مقره في رام الله في 12 أيلول 2009، بإشراف الباحث نادر وهبة، وبمشاركة 14 معلمة ومتخصصة في مرحلة رياض الأطفال ومرحلة الصفوف من 1-4، جئن من روضات ومدارس خاصة في محافظة رام الله، ومن مراكز وجمعيات للطفولة المبكرة في القدس والناصرة. وتناول اللقاء أهم التحديات التي تواجه التعليم، وفرص التكون المهني المقدمة للعاملين، بالإضافة إلى رؤى مستقبلية لتطوير التعليم في هذه المرحلة من وجهة نظر المشاركين.

تحديات التعليم والتعلم في مرحلة الطفولة المبكرة

وتحدثت المشاركات عن التحديات التي يواجهنها في تعليم تلك المرحلة والتي يمكن إدراجها تحت العناوين التالية: تحديات تتعلق بتوقعات الأهل من تلك المرحلة، تحديات ناجمة عن السياسات التربوية والمناهج الجديدة، غياب رؤيا واضحة للتعليم في تلك المرحلة، تحديات تتعلق بالمؤسسات التربوية وبرامج التأهيل.

توقعات الأهل والمناهج

أما بخصوص التحدي المتعلق بالأهل والمناهج، فترى نضال خمشا، معلمة روضة في مدرسة راهبات مار يوسف في رام الله، أن أولياء الأمور يعتبرون مرحلة الروضة مرحلة تمهيد للمرحلة الرسمية الدنيا (صفوف أول وثان وثالث)، وبالتالي يرفعون من سقف التوقعات، حيث يطالب الأهالي بالكتب المدرسية لكي يتبعها المعلمات، ويتوقعون من الطفل القراءة والكتابة.

وتضيف خمشا: ينسى (الأهل) أن الطفل انتقل من البيت أو الحضانة إلى جو آخر، يجب أن يكون هنالك أشياء أخرى تراعى عند الطفل قبل أن يصل إلى المدرسة».

وأكدت سمر مصرصع من مدرسة سيدة البشارة للروم الكاثوليك في رام الله على هذا التحدي وأضافت أن مناهج الصفوف الأول والثاني والثالث تقود عملية التعليم في مرحلة الطفولة المبكرة -أي مرحلة البستان والتمهيدي- وتقول: «إن هذه المناهج تطلب من الطفل أن يتخرج من الروضة، وأن يستطيع أن يقرأ ويكتب على الأقل، وأن يعرف جميع الحروف. في هذه المرحلة نحن مجبرون على أن نعمل مع الطفل ضمن المناهج الموجودة لدينا»، مضيفة أن هذه التوقعات من قبل الأهل والمناهج تقود إلى إهمال مهارات متنوعة يحتاج إليها الطفل في تلك المرحلة العمرية، وأن الكتب الدراسية المقررة للصفوف 1-3 تهمل إبداعات الطفل ولا تنمي مهارات التفكير لديه على حد قولها.

وتحدثت سوسن مرعي من مركز الطفولة في الناصرة ومعلمة للصفين الأول والثاني عن مدى تركيز رياض الأطفال على الجانب المعرفي وإهمال الجوانب الأخرى، وأهمها المهارات الاجتماعية. كما تحدثت عن معيار النجاح لمعلمة رياض الأطفال الذي اختزل في مدى حفظ الطلبة للأحرف.

وتقول: طلب مني أن أعلم صفوف البستان، فرأيت الخطورة، وأين نحن ذاهبون بهؤلاء الأطفال، فاللغة لدينا تنحصر فقط في القراءة والكتابة، نريد من هذا الطفل أن يقرأ ويقرأ، وعندما يأتي الطفل من البستان تكون لديه صعوبة في التعبير عما يريد من دون خوف، ما لفت نظري إلى أنه كان يأتي الطالب من البستان يجلس ويضع إصبعه على فمه وهو مكتوف الأيدي، وهذه الطريقة تستفزني".

كما عبرت مرعي عن استيائها من الطريقة التي يعامل بها الطلبة أثناء اللعب، وتقول: "إننا نعامل الطفل بالطريقة نفسها التي نعامله بها في المدرسة، ليس هنالك تفاعل ولعب ومرح، تجد أن زاوية الرمل

في البستان لا يوجد فيها أحد، لأن الطفل يتعلم قاعدة بأن المعلمة تريد دائماً أن ترى الطالب نظيف ومرتب".

من جهة أخرى، تحدثت يسرى محمد، من المركز الجماهيري للطفولة المبكرة في القدس، عن وجود تفاوتات في فهم أولياء الأمور لدور رياض الأطفال إلى حد يصل إلى التناقض. وتؤكد محمد على وجود الفهم المغلوط بأن دور رياض الأطفال هو تأسيسي للصفوف اللاحقة، فيطالبون المعلمات بالتركيز على المعلومات والأحرف والأعداد، لكن في المقابل يتم التعامل مع الروضة كموقع بديل عن اللعب في الشارع أو البيت؛ أي "مضب للطفل"، وهو ما يشكل التحدي الحقيقي لها ولمؤسستها.

وأضافت: إن الكثير من رياض الأطفال هدفها الأساسي هو الربح بغض النظر عن نوعية التعليم، وإن أي شخص لديه أموال ليس له علاقة بالطفولة، يقوم بفتح روضة، أو أن يكون له بيت من طابقين يفتح الطابق الأسفل حضانة صغيرة.

دور المعلم وضغوطات الثقافة المدرسية السائدة

وتحدثت أحلام داود من روضة الفرح في قرية بني زيد (دير غسّانة) غرب رام الله، عن المشكلة التي واجهتها في التعليم من المدرسين الآخرين ومديري المدارس في المراحل الأساسية، وتوقعاتهم بأن يتخرج الأطفال من الروضة يقرأون ويكتبون ويحسبون.

وتقول: كان عندنا مدير في البلد يأتي عندي، ويقول لي ماذا أعطيتهم من الحروف؟ وكم حرفاً يعرف التمهيدي عندما جاء من عندك إليّ؟ لماذا لا يستطيع أن يتهجى؟"، مضيفة أن الإشكالية في أولئك المعلمين الذين "لا يريدون أن يتعبوا مع الطفل، بل يعلمونه كل شيء ليكون جاهزاً ومتلقناً فقط".

وعقبت سمر أبو الهيجاء من مركز الطفولة بالناصرة قائلة: إن "المشكلة فعلاً من المسؤولين والموجهين في مراحل الطفولة الذين يريدون فرض الطريقة والمواضيع"، موجهةً اللوم إلى المعلم الذي يخضع لتلك السلطة، وتضيف: "أنا مربية روضة وأؤمن بالطريقة التي أعمل بها، أنا مسؤولة عن صفي ومربية صفي، فلو زارني المشرف وانتقدني، وقال لي هذا موضوع شامل أو غير شامل، فماذا أعطي الأطفال؟ وما الدور الذي أقدمه لهم؟ . . . أنا استطيع أن أقرر ما الذي أريد أن أعلمه، وما الذي لا أريد أن أعلمه".

وأكدت نبيلة إسبانيولي من مركز الطفولة في الناصرة، كلام أبو الهيجاء حول دور المعلم، وتقول: "إن كانت وظيفتي أن أعلم فماذا أعلم؟ أريد أن أعلم مفاهيم؟ أريد أن أعلم مصطلحات؟ أعلم الحساب أو اللغة العربية؟ هذا من ناحية التعليم، أما عندما أرى نفسي مربية، فوظيفتي أن أدعم نمو الطفل، وأدعم استكشافات الطفل، وتعلم طرق تعلم الطفل.

وأكدت راية المدموج من مدرسة سيدة البشارة للروم الكاثوليك في رام الله على دور المربية، وقالت: إن على من يريد أن يعمل مع الأطفال أن "يعمل على نفسه أولاً، لأن الوعي الذاتي مهم جداً، إذ كيف سيفهم طبيعة الطفل إذا لم يفهم ذاته"، مؤكدة على أن ليس كل شخص يستطيع أن يعلم هذه المرحلة العمرية الحساسة.

غياب رؤيا واضحة في برامج التأهيل

في المقابل، لم تر إسبانيولي أن التحدي الأكبر هو من الأهل، بل من غياب دور المؤسسات الفاعل لمرحلة الطفولة وما قبل الطفولة، وتضيف: "من تجاربنا رأينا أن الأهل شركاء . . . فنحن نتحدث مع الأهل حول مفهوم التربية الجيدة، ولكن في النهاية عندما نتحاور معهم لا نرى الإشكالية عند الأهل، بل نرى الإشكالية عند التربويين والمؤسسات".

وأوضحت أن مرحلة الطفولة والطفولة المبكرة هي ليست مرحلة انتقالية، بل مرحلة قائمة بحد ذاتها وينقصها الرؤيا الواضحة المبنية على أساس أن الطفل "مستكشف ومحب للاستطلاع والبحث بطبيعته".

وتضيف: "إن على المؤسسات التعليمية أن تبني برامجها على هذه الرؤيا التي تمكن من خلالها التربويين والمعلمين من أن يتعلموا من الطفل وطرق تعلمه وبشكل شمولي، وليس كما هو متبع الآن من منهاج مقطوع يمنهج تعلمه بطريقة "تقصيه من قدراته الطبيعية".

وعند سؤالهم عن الآلية التي يمكن أن نقنع بها المجتمع بأهمية دور رياض الأطفال من الناحية التكوينية والتكونية للطفل، في ظل سياقات تؤمن بأن التعلم الرسمي يبدأ من السنة العمرية الخامسة، وبخاصة في ظل الإحصائيات المقدمة من وزارة التربية التي تشير إلى أن 22% فقط من الأطفال يتوجهون إلى الروضات، أجابت إسبانيولي: إن الأبحاث تشير إلى أن السنوات الثلاث الأولى من عمر الطفل تعتبر من أهم مراحل نمو الوصلات العصبية؛ إذا استعملها فهو يحافظ عليها، وإذا لم يستعملها فسيفقدها، وإن الخبرات المستمدة من الروضات تعتبر استثماراً لهذه القدرات الذهنية وآلية إنمائية للمستقبل.

ومن التحديات المهمة التي تحدث عنها المشاركون غياب برامج التأهيل الفعالة؛ سواء لمعلمي ما قبل أو أثناء الخدمة، واقتصارها على معارف نظرية حول خصائص تلك المرحلة.

وتقول يسرى محمد "إن البرامج المقدمة للمعلمين والمعلمات في تلك المرحلة مجزأة، وأن المؤسسات التربوية المتخصصة في هذا المجال تعمل وحدها وكأنها في جزر".

وتضيف: "نحن بحاجة إلى التعاضد وإلى أن تكون يدنا يداً واحدة لتكميل التكامل العملي"، مؤكدة على أهمية التشبيك والتكامل بين المؤسسات.

وطالبت ضحى المصري مديرة روضة الفرندز في رام الله بأن تأخذ

الجامعات تخصص الطفولة المبكرة على محمل الجد، وأن تستجيب لحاجة المجتمع لمتطلبات التخصص لهذه المرحلة، وأن يتم إعادة تأهيل المعلمين والمعلمات في تلك المرحلة، مؤكدة في الوقت نفسه على ضرورة اللجوء إلى أصحاب التخصص والتجارب، ومن أناس عملوا في هذا المجال لفترات طويلة وليس الارتجال من تخصصات أخرى.

وأكدت المصري على أهمية وجود منهاج لهذه المرحلة، وتضيف "منهاج لا يكون مغلقاً، لا يكون بعقولنا كالمنهاج الذي نراه في الكتب للصفوف الرسمية . . . بل إطار يستجيب لمتطلبات هذه المرحلة، بطريقة لا تكون تلقيناً، ويكون الجو ممتعاً"، داعية إلى وضع حد لتلك الروضات التي تفتح أبوابها بهدف الربح دون وجود أساس تخصصي ومنهاج مناسب يحكم عملها.

تجارب نوعية ومعانٍ جديدة

وفي سؤال حول تلك التجارب المحسوسة في مرحلة الطفولة المبكرة التي تقدم نموذجاً للأطفال ومعلمي المرحلة الأساسية وتعرض منظوراً مختلفاً عن المنظور الذي تقدمه المدرسة والتربية، عرضت فيفيان طنوس وهي معلمة رياض أطفال في مدرسة راهبات مار يوسف في رام الله، وسبق أن التحقت بمدرسة القطان للدراما تجربتها مع الأطفال في حصص الدراما والمسرح، وكيف استطاع الأطفال ضمن هذا السياق أن يظهروا طاقاتهم ومواهبهم الكامنة، وكيف أن الأهل كانوا يفاجأون من رؤية أطفالهم على خشبة المسرح يواجهون الجمهور، ويعرضون مواهبهم بجرأة، وتحدثت عن تجربتها مع طفلة في صفها، وقالت:

"في السنة الماضية كنت أعطي حصة دراما، وكانت هناك طفلة لا تتكلم نهائياً، لا تسمع صوتها، كنت أعطي نشاطاً تفريغياً، وتخيلنا أننا نحن في بيت ونريد أن ننتقل من بيتنا لبيت آخر، فطلبت منهم أن يأخذوا معهم أشياء من بيتهم إلى البيت الجديد. تفاجأت أن الطفلة رفعت إصبعها وبدأت تتكلم بطلاقة عن شيء أثر فيّ حتى اليوم، ولا أستطيع أن أنساه. كانت الطفلة في أمريكا وجاءت إلى الضفة، وبقي والدها هناك، وكانت الطفلة تشعر بضيق شديد، فعندما جاءت (إلى الصف) أحضرت معها هدية كان والدها قد أهداها إياها في عيد ميلادها، وكانت عندما تشمها تحس برائحة والدها ورائحة بيتهم هناك، في هذه الحالة صار هنالك حوار بينها وبين البنات في الصف، وبدأت البنات بتوجيه الأسئلة لها، وقامت بالإجابة عن كل الأسئلة التي وجهت إليها، فحتى اليوم لا أستطيع أن أنسى كم أثر فيّ هذا الشيء، فهذه الطفلة لو لم أفعل هذا النشاط فلم أكن لأعرف هذه الأشياء عنها، كم اختلفت بعد أن قالت لنا هذه القصة".

أما أحلام داود، فتجربتها مع الأطفال كانت منذ العام 1983، حيث كانت تتبع الأسلوب التكاملي في تعليم الأطفال عبر اللعب. وتضيف: "كنت استدعي الأمهات وأعمل معهن أي نشاط في الروضة، وأوضح لهن كيف يمكن أن أوصل المفاهيم إلى الطفل. وكنت أدخل عدة مفردات باللغة والرياضيات والعلوم والدين من خلال اللعب"

وتحدثت كوكب يونس من جمعية دار الطفل العربي في المثلث الشمالي عن تجربتها في المنهاج الشمولي التكاملي الذي بنوه في المركز،[1] وعن تجربة طفلين كانا يصنعان طائرة من بقايا الخشب، وتقول "وقفت لكي اسمع نقاشهما الذي شدني، وكان الطفل يقول للآخر إن العلاقة النسبية بين أجنحة الطائرة والجسم التي تطلقها غير دقيقة"، معبرة عن تفاجئها من مستوى المعرفة والمصطلحات التي أستخدمها الطفلان أثناء اللعب والاكتشاف.

أما إسبانيولي فقد تحدثت عن تجربتها مع الأطفال في مركز الطفولة في الناصرة حول قضية الهوية وتقول: "كانت لدينا إشكالية في قضية الهوية، كيف سنعمل مع الأطفال من خلال الهوية، فحصنا مركبات هويتنا نحن كفلسطينيين، ووجدنا مركبات كثيرة تنتمي لهويتنا ومنها النباتات، فنحن نأكل النباتات ونلعب بالنباتات، ففكرنا كيف ندخل النباتات إلى الروضة، عندما أجلس وأفكر فأنا أفكر بأشياء كثيرة". وتحدثت كيف تحولت هذه التجربة وتجارب أخرى إلى حقائب تعليمية عممت على المربيات في روضات مختلفة.

رؤى مستقبلية

تنوعت الآراء حول ضرورة وجود تخصصات نظرية ومناهج تعليمية في مراحل الطفولة، فبينما أيدها البعض، عبر البعض الآخر عن ضرورة وجود نهج بدلاً من منهاج، وعن اعتماد "التجربة" كآلية للتكون المهني بدلاً من وجود متخصصين يحكمون ممارسات العمل.

وفي هذا السياق أكدت كوكب يونس على أهمية وجود مثل هذه اللقاءات لتبادل التجارب المختلفة وبشكل عميق، وتؤكد على أن منهاجاً واحداً ونظرية واحدة في التعلم قد تكون مفيدة في رياض أطفال معينة وفي مناطق معينة دون الأخرى، وهذا ينطبق على القصة أيضاً، ولا يمكن معرفة ذلك إلا عبر تبادل التجارب على حد قولها. وتضيف: "لا يكفي أن نعرف أن هنالك تجارب ناجحة، نحن بحاجة إلى لقاءات فكرية أعمق لنستفيد منها".

وفي الختام، قدم منظمو اللقاء برامجهم المتعلقة في مرحلة الطفولة المبكرة، ومن أهمها مشروع الثقافة العلمية المتعدد الأنساق لمرحلة الطفولة المبكرة، الذي سيبدأ مع بداية العام المقبل مع معلمي رياض الأطفال وصفوف 1-4، والذي يعتمد بالأساس على تجارب المعلمين والأطفال والبناء عليها، ودمج بعض الطرائق العالمية والمحلية في تدريس هذه المرحلة من قبل متخصصين. أما المشروع الآخر الذي سيرعاه مركز القطان فهو منتدى الطفولة المبكرة في مناطق مختلفة، والمعتمد على لقاءات حوارية لتبادل تجارب المعلمين في مرحلة الطفولة المبكرة.

نادر وهبة – مركز القطان

الهامش

[1] قدمت كوكب يونس رزمة من الكتب والمواد من نتاج عملهم مع الأطفال في جمعية دار الطفل العربي، وهذه المواد متوفرة في مكتبة المركز.